ويشمل الاتهام حتى بابا روما نفسه، حين انتقده غراس، قائلاً ان البابا «لا يرى سوى ان المقدّسات في بيت المقدس معرّضة للخطر...»[٣٣]، أي انه يغض النظر عن الجماعة الصغيرة الحزينة.

من العبث، كما يبدو، مواجهة هذه الايديولوجية بخطاب سياسي فوقي، بل بخطاب ثقافي يعكس حضوراً عربياً متميّزاً؛ اذ ان الاسطورة لتظل قائمة تلجأ الى غير المباشر والواضح، الى أعماق الانسان وهواجسه ومخاوفه، الى بنية فكره، اضافة الى ان الدفاع عن الاسطورة في الغرب هو دفاع عمّا يعتقده مرتكزات وجوده، لأن في انهيارها انهيار لأسطورة العرق الابيض: اسطورة الحركة الاستعمارية. وبما ان الاسطورة ليست ثقافة فقط، بل هي، أيضاً، تجسّدات انسانية، فان تجسيد انسانية الانسان العربي هو حجر الزاوية في هذه المواجهة.

بين نصّين

يكاد القارىء العربي يتصوّر ان الخطاب الصهيوني، وبخاصة الخطاب الأدبي، هو خطاب سجالي، بمعنى انه ينطلق من، ويتأسّس على، قاعدة الجدل مع الآخر، وعلى قاعدة الاعتداء على حقيقته ومسخها كلّما وجد الى ذلك سبيلاً. والآخر المقصود هو الفلسطيني، أو العربي عموماً.

وقد ساعدت اتجاهات عربية عديدة على اشاعة هذا الانطباع، ورسّخت وجهات نظر مكرورة، تبدو وكأنها اكتشفت مفتاح الخطاب الصهيوني، فلم تعد بحاجة الاّ الى الاشارة اليه، كلّما أُجري حديث، أو جاءت مناسبة. ولكن جولة واسعة نوعاً ما على الخطاب الصهيوني وتجسّداته الأدبية، والفكرية، تظهر ان هذا الانطباع غير صحيح. ليس لأن هذا الخطاب لا يمسّ العربي، أو يتجاهله، أو انه لا يعتدي على حقائقه، وانما لأنه يقوم، في جزء كبير منه، على قاعدة أخرى تكاد تكون مجهولة في الكتابة العربية، تلك هي قاعدة تأكيد الذات وحضورها كتجربة انسانية أمام العالم، وليس خطاباً عاماً مهمّته التصويت. ولا يبدو الكاتب الصهيوني، في هذا الجزء الكبير، منهمكاً في محاولة اقناع العالم بعدم جدارة الانسان العربي، بقدر ما يبدو منهمكاً في اثبات جدارته هو، حتى بدون حاجة الى الاشارة الى الآخر الفلسطيني، أو العربي. اضافة الى انه كاتب محظوظ، كما هو محظوظ الكاتب المسرحي اليوناني القديم الذي كان يستند، دائماً، الى الاساطير اليونانية التي لا يجهلها أبسط يوناني. فما ان يبدأ بالمسرحية حتى يكمل الجمهور بقيّتها. ومصدر الحظ الذي نعنيه هو اعتماد «العهد القديم» جزءاً أساسياً من تعاليم المسيحية الغربية.

تكتسب هذه القاعدة التي ينطلق منها ويتأسّس عليها الخطاب الصهيوني أهمية بالغة في نطاق الأعمال الفنية، والأدبية. فهذه الاعمال هي المؤهلة، دون غيرها، لنقل التجارب وايجاد الصلة بالعالم: الصلة الفكرية والوجدانية معاً. ونعتقد بأن جزءاً كبيراً من الرواج الذي يحظى به الأدب الصهيوني يرجع الى هذه القاعدة، قبل ان يكون بسبب قضية الصهيونية السياسية. ان أشدّ السياسات قدرة ونفوذاً، مثل السياسة الاميركية، هي الأقل اقناعاً على صعيد الغرب، بل وحتى على صعيد الداخل الاميركي.

ما الذي يعنيه تأسيس خطاب على قاعدة التجربة الانسانية؟ وما الذي يعنيه هذا بالنسبة الى الصهيوني؟

اذا تجاوزنا أنماطاً من الخطابات الأدبية الصهيونية التي أُصدرت لتقديم صورة الفلسطيني، والعربي، الى العالم من منظور ضيّق، وهي خطابات لم تعد تحظى بالتعاطف كثيراً، نجد أنفسنا